الهجرة الطلابية الجزائرية نحو جامع الزيتونة بتونس وأثرها على الحياة التعليمية بالجزائر خلال الفترة (1900–1962)م

الدكتور/ خير الدين يوسف شترة
قسم التاريخ والحضارة الإسلامية
جامعة الشارقة– الإمارات العربية المتحدة
kchatra@sharjah.ac.ae

تاريخ الإرسال: 2019-11-30 تاريخ القبول: 2019-12-05 تاريخ النشر: 2019-12-26

Abstract :

Algerian student migration to the El-Zituna Mosque Tunis and its impact on the educational life in Algeria during the period (1900-1962)

For many years, a number of Algerians immigrated to Tunis. The first immigrants settled there and produced a second generation of Algerian scholars, politicians and leaders who were influential whether in their adopted country or in their homeland. Many of these individuals returned to Algeria spreading new ideas and contributed to the reformative, political and progressive efforts in the country.

Unlike other nations where renaissance was spurred by social or political reform, Algeria's was initiated by the scientific missions of its scholars who launched their progressive ventures of bringing about a reform in education and other areas upon their return to their homeland. This was a decisive moment in Algeria's quest for the most appropriate ideological approach for that time.

This paper poses two crucial questions that stem from the ideas presented above: what was the real essence represented by the Algerian student - with his harsh material conditions and the bigotry of a colonial power that had taken over his land, past and future - through his daring initiative to travel to educational centres and

institutions in Tunisia? And what was the impact of these missions to Tunis on the Algerian.

key words: Algerian scientific trips- Algerian students in Tunisia- Scientific communication between Algeria and Tunisia- Scientific Migration in Algeria- Mosque of Zaytouna.

الملخص

عرف تاريخ الجزائر المعاصر نضالات ثلة من أبنائه الذين توجهوا إلى تونس مع موجات المهاجرين الأوائل حيث نزلوا عقب الصدمة الإستعمارية الأولى بمدن ومداشر تونس فراراً من همجية الإستعمار الفرنسي في مواجهته غير المتكافئة مع المقاومة الشعبية الجزائرية، ومع توالي الأيام استقروا وأنجبوا جيلاً كانت له أدواراً مؤثرة على الحياة السياسية والثقافية التونسية مطلع القرن العشرين، ومن هؤلاء من رجع إلى الجزائر فنقل إليها رصيدًا تعليمياً وتثقيفياً هامًا ساهم في تكوين نواة الوعي التعليمي والديني بجزائر القرن التاسع عشر، ومع مطلع القرن العشرين تهيأت بيئة ثقافية سمحت إلى حد ما بتشكيل تيارين أحدهما سياسي فتي ، وآخر إصلاحي متردد.

كما شهدت الجزائر خلال هذه الفترة انطلاق هجرات طلابية من الجزائر باتجاه المؤسسات التعليمية المشرقية عموماً والتونسية على الخصوص بأسباب متعددة منها العفوية ومنها المنتظمة، واتخذت لها ثلاث مسارات جغرافية، هي الأخرى كان لها الأثر البارز في عودة الروح التعليمية للمجتمع الجزائري.

وبحكم نسبي غير ملزم صح أن نقول: أنه إذا كانت يقظة بعض الشعوب قد بدأت بالنشاط السياسي الثوري أو بالتحرك الاجتماعي المنتظم؛ فإن يقظة الجزائر قد انطلقت – بهجرات علمائها وطلابها– إلى الخارج، ومنهم على الخصوص الطلاب المرتحلين إلى تونس، ذلك أنهم وبعد تحصيلهم لشتى العلوم والفنون آثروا العودة إلى الجزائر والأمل يحدوهم في تحقيق

نهضة تعليمية وتربوية شاملة لكن بأهداف متباينة، وبإنتماءات سياسية وإيديولوجية متشاكسة، جسّدت في تلك الفترة عمق الصدام الذي وقع بين مختلف أطياف النخب المثقفة ثقافة عربية –إسلامية حول النهج الفكري والحضاري الذي وجب على الحركة الوطنية الجزائرية الفتية اتباعه آنذاك، سواءً في صراعها مع الإيديولوجية الاستعمارية، أو مع النخب الجزائرية ذات التوجه الإندماجي المتصالح مع الوجود الإستعماري في الجزائر بنوعيه (النخب المكتسبة للثقافة الفرنسية أو المرتمية في الثقافة الغنوسية السلبية).

ومن هنا يمكننا أن نطرح عدة إشكالات في هذه الدراسة:

ما هي الدوافع الغالبة على حركية الإرتحال الطلابي الجزائري إلى المؤسسات التعليمية خارج البلاد؟ وما هو المعنى الحقيقي الذي جسّده الطالب الجزائري- بظروفه المادية والاجتماعية القاسية- من خلال مواكبته لموجات الإرتحال العفوي والمنتظم التي سادت جزائر النصف الأول من القرن العشرين إلى المعاهد والمدارس التونسية؟ ثم ماهي الآثار الإيديولوجية والسياسية والتعليمية المترتبة عن هذه الهجرات الطلابية على واقع الحياة السياسية والحركية الإجتماعية والثقافية بجزائر ما قبل الثورة المسلحة؟

الكلمات المفتاحية: الرحلات العلمية الجزائرية-الطلبة الجزائريون بتونس- التواصل العلمي بين الجزائر وتونس – الهجرة العلمية في الجزائر- جامع الزيتونة.

مقدمة

في الوقت الذي كانت فيه جزائر القرن التاسع عشر ميلادي تحت التأثير الفرنسي، كانت بالتوازي تحت تأثير آخر ألا وهو التأثير الشرقي الذي نقلته ورعته صدور ودفاتر وذكريات .... أجيال من المرتحلين والزائرين والحجيج وطلاب العلم، والمهاجرين الذين

أجبرتهم ظروف الاحتلال على مغادرة بلادهم ولكنهم لم ينسوها بل ظلوا على صلة بأرضهم وأهاليهم، كما أدت الصحف والجرائد والمجلات والكتب والإجازات والمراسلات ومختلف الأنشطة الثقافية والفكرية والأدبية المتبادلة بين نخب الضفتين (المشرقية والمغربية) دوراً آخر مهماً في الإبقاء على التأثير الشرقي ببعده الديني واللغوي والإيديولوجي، فرغم سياسات الإلحاق الإداري والقانوني والتشريعي، ورغم الغزو الاستيطاني والهيمنة الثقافية واللغوية...التي مارستها الإدارة الاستعمارية الفرنسية على الجزائر،إلا أن هذه الأخيرة لم تنقطع عن موروثها الشرقي.

لقد كانت يقظة الجزائر في هذه المرحلة التاريخية، قد سبقتها يقظة معظم الشعوب الشرقية الأخرى، فالمقاومات الشرسة للوطنيين الجزائريين بُعيد الاحتلال الفرنسي أو ما أصطلح على تسميته بالمقاومات الشعبية وما تلاها من مصادرة للأرض، ومسخ للهوية الوطنية، وتشريد ونفي وإفناء للعنصر المثقف والمتعلم، كل ذلك جعل بداية اليقظة عند النخب الجزائرية تبدو مبكرة جداً، لتزداد رسوخاً مع أواخر القرن التاسع عشر حين تصادفت مع يقظة شعوب أخرى.

وبحكم نسبي غير ملزم صح أن نقول: أنه إذا كانت يقظة بعض الشعوب قد بدأت بالنشاط السياسي الثوري أو بالتحرك الاجتماعي المنتظم؛ فإن يقظة الجزائر قد انطلقت – بهجرات علمائها وطلابها- إلى الخارج، ومنهم على الخصوص الطلاب المرتحلين إلى تونس، ذلك أنهم وبعد تحصيلهم لشتى العلوم والفنون آثروا العودة إلى الجزائر والأمل يحدوهم في تحقيق نهضة تعليمية وتربوية شاملة لكن بأهداف متباينة، وبإنتماءات سياسية وإيديولوجية متشاكسة، جسّدت في تلك الفترة عمق الصدام الذي وقع بين مختلف أطياف النخب المثقفة

ثقافة عربية –إسلامية حول النهج الفكري والحضاري الذي وجب على الحركة الوطنية الجزائرية الفتية اتباعه آنذاك، سواءً في صراعها مع الإيديولوجية الاستعمارية، أو مع النخب الجزائرية ذات التوجه الإندماجي المتصالح مع الوجود الإستعماري في الجزائر بنوعيه (النخب المكتسبة للثقافة الفرنسية أو المرتمية في الثقافة الغنوسية السلبية).

ومن هنا يمكننا أن نطرح عدة إشكالات في هذه الدراسة: ما هي الدوافع الغالبة على حركية الإرتحال الطلابي الجزائري إلى المؤسسات التعليمية خارج البلاد؟ وما هو المعنى الحقيقي الذي جسّده الطالب الجزائري- بظروفه المادية والاجتماعية القاسية- من خلال مواكبته لموجات الإرتحال العفوي والمنتظم التي سادت جزائر النصف الأول من القرن العشرين إلى المعاهد والمدارس التونسية؟ ثم ماهي الآثار الإيديولوجية والسياسية والتعليمية المترتبة عن هذه الهجرات الطلابية على واقع الحياة السياسية والحركية الإجتماعية والثقافية بجزائر ما قبل الثورة المسلحة؟

1. عوامل بروز حركية الهجرة الطلابية الجزائرية إلى المؤسسات التعليمية بالخارج مع مطلع القرن20م:

إن هذا السؤال ما كانليُطرح في القديم، ولكنه في عصرنا الحالي جديرٌ بالإجابة عنه لأنه قد يُظن أو يُعتقد بسبب كثافة الهجرات الطلابية إلى الخارج؛ أن الوطن الجزائري كان خلواً من الدور الثقافية التي تُشبع نهم طلبة العلم وتفتّق قرائحهم، وتقرّ به عيون العلماء، والحقيقة التاريخية أن الوطن الجزائري كان يهتم بالعلم والعلماء، ولكن شهرة بعض المراكز العلمية كالزيتونة والقرويين والأزهر... قد تجعل الأعناق تشرئب إليها، لما لها من تقاليد مكّنتها من استقطاب الطلبة والعلماء، فكانت بذلك منارات يُهتدى بها، ولا ضير في أن يكون الجزائريون

من جملة هؤلاءوليس استثناء من غيرهم، فهناك الليبيون والمغاربة والتونسيون وغيرهم هاجروا إلى أماكن خارج بلدانهم لطلب العلم، وجدير بالذكر أنه كان للمؤسسات والمعاهد التعليمية بتونس الدور الأكبر في استقطاب كثير من الجزائريين وخاصة في مرحلة الاستعمار الفرنسي، وفي الجملة فهناك عدة عوامل كانت سببًا في هذه الهجرات العلمية لعل أهمها:

- **العامل الاستعماري**: إن مقارنة بسيطة بين الوضع التعليمي في الجزائر ونظيره في تونسيتبيّن لنا أن التعليم العربي الإسلامي في هذه الأخيرة قبيل الحماية قد وصل بواسطة إصلاحات خير الدين باشا إلى مستوى متطوّر نسبياً عنه في الجزائر، فقد كانت هناك – رغم نظام الحماية- حياة فكرية نشطة داخل وخارج جامع الزيتونة، ذلك أن الفرنسيين لم يتدخلو بشكل مباشر وصريح في المنظومتين الدينية والتعليمية للتونسيين طاعةً لأوامر المقيم العام "كمبون" صاحب مقولة: «يجب الترميم لا التخريب، والتطوير لا التدمير، الإحاطة وليس التحكم مباشرة»[1]، ويذكر مسؤول في إدارة التعليم العمومي في تقرير للمقيم العام: «أنه من بين الأغلاط الكبرى التي نرتكبها في تونس إذ نحاول أن نوقف نشر التعليم أو الحد منه، إذ يجب تجنب الوقوع في نفس الهفوات التي وقعت بها الإدارة في الجزائر في بداية الاحتلال بدون أي فائدة لا للتأثير الفرنسي ولا لنشر لغتنا»[2].

وفي الجزائر كتب لوي ماشوال أنه: «كانت الإدارة الاستعمارية ترى في كل المدارس الإسلامية [بالجزائر] معاقل تطرف ديني فيتم تدميرها من دون حساب لنتائج ذلك»[3]، ثم يضيف قائلاً بأن: «كل شيء في تونس يشير لنا بأن نتجنب الهفوات التي ارتكبت في الجزائر وأن لا نجرح الشعور الإسلامي في هذا الجانب ولا نمس من سمعة المؤسسة الجامعية (الزيتونة)

التي تمثل فخرهم؛ بل بالعكس لابد من إعانة الوطنيين على تطوير مؤسساتهم وإصلاح تعليمها»[4].

إن الوضع التعليمي المزري في الجزائر هو الذي جعل فرحات عباس يصرخ قائلاً: «لم يبق من حل سوى الرشاشات»[5]، وعلى هذا فقد ازدادت خطورة الوطنيين ووسّع العلماء شبكة مدارسهم ونفوذهم، واستطاعوا أن يدرّبوا جيلاً من الشباب متّجهًا بكليته إلى المشرق العربي[6]، كما أن تطبيق فرنسا لقانون التجنيد الإجباري ابتداء من سنة 1912م على المسلمين الجزائريين جعل الشباب الجزائري يفر إلى تونس والمشرق العربي بحجّة طلب العلم وهذا خوفاً من استدعائهم لأداء الخدمة العسكرية، وبناء على ما سبق نلاحظ أن نسب البعثات تكاد تكون الأعلى خلال فترات حروب فرنسا ومواجهاتها العسكرية سواءً مع خصومها الأوربيين أو في مستعمراتها (1865-1872)م، (1912-1919)م، (1936-1946)م، (1952-1955)م[7].

- **العامل العلمي**: إن من أهم دوافع توجّه الطلبة الجزائريين إلى الخارج لأجل طلب العلم هو حب الاستزادة من العلم الشرعي خصوصاً، وتشير إحصائيات عام 1944م أن عدد الأطفال الجزائريين الذين كانوا في سن الدراسة قد بلغ (150000) مسلم و لم تتح فرص التعليم الابتدائي إلا لـــ (11000) طفل من مجموع العدد المذكور آنفًا، أي بمعدل واحد من جملة أحد عشرة أتيحت له الفرصة ليزاول تعليمه في إحدى المدارس[8]، وهو ما دفع بعدد كبير من الجزائريين إلى الدراسة بالخارج[9].

يضاف إلى ذلك المستوى العلمي المتميز الذي كانت تتمتع به المؤسسات التعليمية في تونس، وهو ما أكده الطالب الزيتوني عبد الله ركيبي بقوله: «...إن دافعنا إلى الهجرة إلى

تونس حينها هو دافع جيل كامل بل أجيالا قبلنا، تهدف إلى أن نتثقف ثقافة عربية إسلامية أصلية، خاصة وأن التعليم المتوسط والثانوي لم يكن بالعربية، ولكنه كان بالفرنسية، ونحن أبناء الشعب من يعيش منا في الريف أو القرية لا فرصة له ليواصل تعليمه بعد الابتدائي فكانت (الزيتونة) ملجأ لمن حُرم من ثقافته وتراثه القومي، و لم يكن للجغرافية دخل في هذه الهجرة إلى تونس، فهناك التقينا بأمثالنا من شتى أنحاء الوطن»[10]، كما أن وجود معاهد علمية تابعةللطرق الصوفية بتونس زاد من حركة المريدين من وإلى تونس وهو ما شكّل دافعاً لحركة هجرة طلبة العلم باتجاه هذه المراكز لعل أشهرها زاوية نفطة التعليمية. فمن بلدة نفطة بالجريد التونسي حتى العاصمة التونسية، كانت المدارس والزوايا التونسية مُشرّعة الأبواب لأفواج طلاب العلم على النحو الذي تُفصّله مذكرات الأستاذ مالك بن نبي في قوله: «كان في تبسة فوران في الأفكار حقاً يحفظه ويرعاه ويصونه العلماء الذين أخذوا يعودون من تونس ... ولا يفوتنا أن نذكر أنهم كانوا في تبسة على سنة سنّها شيخ من نفطة بالحدود الجزائرية التونسية...»[11].

إن وفرة مراكز العلم بتونس مع وجود جامع الزيتونة إضافة إلى دعاية العائدين منه بشهاداتهم أو في عطلهم من طلاب العلم، كل ذلك كان يزيد في حمى الهجرة العلمية باتجاه تونس، فهذا الشيخ محمد خير الدين يؤكد أولوية هذا الدور في عقده العزم على السفر إلى تونس: « وفي آخر العام الثاني من إقامتي بقسنطينة(1918م) قدِم إليها من تونس الشيخ الصالح الرحابي الرياحي الدراجي كان قد أنهى دراسته بجامع الزيتونة ونزل ضيفاً على الشيخ الطاهر بن رقطة فانتهزنا نحن تلاميذ المسجد مقامه بيننا وأخذنا نلتف حوله نسأله عن الحياة العلمية الزيتونية ... فزوّدنا –رحمه الله– بالكثير من المعلومات التي ملأت نفسي رغبة في

الاغتراف من معين هذا المورد الفياض... وعقدتُ العزم منذ ذلك الوقت على السفر إلى تونس ...»[12]، يضاف إلى ذلك التعليم المثمر الذي خاضته بعض الجمعيات والنوادي والأحزاب الجزائرية كجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وحزب الشعب الجزائري، وبعض الجمعيات الخيرية المحلية، مما زاد في رغبة طلاب الجزائر إلى التعلم والرحلة في طلبه[13]، ويذكر الأستاذ أبو القاسم سعد الله: «أن زيارة الشيخ عبد الحميد بن باديس لهم في الثلاثينيات من القرن العشرين قد أذْكت روح النهضة في القرية، ونتيجة لذلك ولانتشار الحركة السياسية الوطنية ولتأثير الحرب العالمية الثانية، سافر عدد من شبان قُمار إلى تونس للدراسة في جامع الزيتونة، وكان هؤلاء الشبان يعودون في صيف كل عام فيتصلون بشبان جدد وينشرون بينهم أفكار جديدة، فكان عدد الذاهبين إلى تونس يزداد في خريف كل سنة إلى أن كنتُ من بين هؤلاء المجنّدين عام 1947م»[14].

- **دور المؤسسات التعليمية في تونس في استقطاب الطلاب الجزائريين:** إن التعليم الزيتوني بالجامع الأعظم وفروعه كان عامل وحدة وتقارب بين الجاليات الإسلامية المقيمة بتونس والشعب التونسي، ففي رحاب الجامع الأعظم جلس الطالب الزيتوني والجزائري والليبي والمغربي وغير ذلك من الوافدين من أقطار إسلامية أخرى[15]، فجامع الزيتونة يُعد منارة أضاءت بنورها سماء بلاد المغرب العربي، فهو يُشكل في أهميته التربوية المرتبة الثانية بعد جامع الأزهر بمصر[16]، وقد ارتحل إليه المسلمون من الأقطار المغاربية والأفريقية لينهلوا من منابع فيضه شتى العلوم وأصول الدين[17]، وكانت صورة الجامع الأعظم في نفوسالجزائريين رائعة وعظيمة لإدراكهم أنه: «ما ضاق صدر مهموم ودخله إلا وانفرج وانفتحت له بلطيف عنايته أبواب الفرج»[18]، وعلاقة الجزائريين بجامع الزيتونة تعود إلى فترات تاريخية موغلة في

القدم[19]-كما سنشرح لاحقاً- حيث احتضن الجامع الأعظم العديد من الطلبة الجزائريين الذين شُغفوا بطلب العلم، وفي هذا السياق يقول محمد الطاهر فضلاء: «...الذي أعرفه ويعرفه الناس جميعًا في الجزائر هو تأثير جامع الزيتونة في تلك النواحي بالخصوص، وهو يتمثل في المصلحين عمومًا وفي مثقفي اللغة العربية والمتخرجين من ذلك المعهد الإسلامي العظيم»[20]، فللزيتونة وعلمائها وشيوخها وأئمتها أفضال كبيرة على الجزائر والشعب الجزائري خاصة في نهاية القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين، وذلك في ميدان الفكر والثقافة والتربية والتعليم[21].

ونخلص إلى القول في هذا المبحث أنه كان للهجرات العلمية الطلابية المتتالية دورها المميز في تغذية حركة النهضة التعليمية في الجزائر بجميع جوانبها، والإسهام في توسيع دائرة النشاط الثقافي والأدبي بها وبخاصة منها جامع الزيتونة العامر، فقد كان من أهم العوامل التي سارعت في نقل أفكار أعلام الحركة الإصلاحية المشرقية إلى طلبته من الجزائريين وذلك عن طريق المصلحين من شيوخه.

2.قراءة إحصائية لتطور الوجود الطلابي الجزائري بتونس:

تخرّج عن طريق حركة التواصل العلمي الطلابي بين القطرين منذ بداية الهجرات العلمية الفردية المنعزلة أواخر القرن التاسع عشر، إلى غاية إنطلاق ما أُصطلح على تسميته بالبعثات التعليمية المنظمة الموجهة إلى تونس قبل الاستقلال الآلاف من الإطارات ممن تلقوا تعليمهم في الجامع الأعظمأو المدارس التعليمية الأخرى كالمدرستين الصادقية والخلدونية، وهو عدد يفوق ضِعف الجزائريين المتخرجين من الجامعة التي أنشأتها فرنسا في الجزائر[22]، وقد توالى الطلبة الجزائريون على تونس بعد شيوع ظاهرة البعثات المنظمة خلال عشرينيات القرن العشرين،

ولعل أولها تلك التيانطلقت من منطقة وادي ميزاب وكانت سبباً في تأسيس معهد الحياة، واستمرت طوال الفترة (1913-1961) باستثناء فترة الحربين العالميتين الأولى والثانية، ثم تلتها بعثات الشيخ عبد الحميد بن باديس من الجامع الأخضر بقسنطينة، لتتولى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بعد تأسيسها في ماي 1931م أمر تنظيم هذه البعثات بشكل أكثر تنسيقاً، والمميز أن الجمعية ستتوسع بدءاً من مطلع الخمسينيات في أمر هذه البعثات خصوصاً بعد استقرار الشيخ الإبراهيمي بالمشرق فتعددت وجهات البعثات الجزائرية إلى أقطار عربية عدة، ولا يمكن أن نتجاهل هنا الدور الكبير الذي أدَّته بعض الزوايا والجمعيات المحلية والأحزاب والتنظيمات السياسية خصوصاً بعد الحرب العالمية الثانية في تكثيف الهجرات العلمية لطلاب الجزائر باتجاه تونس[23].

أما تاريخياً فقد كانت الهجرة العلمية من الجزائر (المغرب الأوسط) إلى المشرق إحدى السمات البارزة التي طبعت الاتجاه العلمي المغربي منذ الفتح الإسلامي وحتى بداية الاستعمار الفرنسي في سنة 1830م، فقد كان طلاب العلم بالجزائر بحكم تشوّقهم للتفقّه في أمر الدين الجديد يتشوّقون لشد الرحال قصد الأخذ عن العلماء المشارقة الذين نالوا شهرة واسعة، ومنذ القرن الثاني للهجرة تتابعت قوافل طلبة العلم تحدوهم العزيمة القوية وحبّ الاطلاع والرغبة في تمتين أواصر اللحمة وتعزيز الإسلام واللغة العربية، وغالبًا ما كانت هذه الهجرات تُشفع بأداء مناسك الحج أو مجاورة الحرم النبوي الشريف والتتلمذ على كبار علماء مكة والمدينة[24]، «وما صارت أفريقية (تونس) دار علم إلا بعد أن خرج من أهلها رجال إلى المشرق في طلب العلم، وقفلوا من المشرق يحملون علم الشريعة، وهم أصحاب مالك بن أنس؛ منهم: علي بن زياد التونسي(ت 138ه) وهو أول من أدخل الموطأ إلى المغرب، وبن أشرس والبهلول بن

راشد القيرواني، وعبد الله بن غانم القيرواني، من كبار أصحاب مالك بن أنس فجاؤوا بعلم الحديث والفقه وعلم العربية»[25].

وبفضل هذه النخبة التي كانت طليعة الرحالين العلماء أصبحت القيروان أحد المراكز الإسلامية البارزة في ربوع أفريقيا والمغرب يقصدها طلبة العلم من جميع المدن والجهات ليتتلمذوا إلى كبار علمائها ثم يعودوا إلى جهاتهم فيبثون علمهم ويجلسون للتدريس بالمساجد أو يواصلون الرحلة إلى المشرق للاستزادة والإجازة والحج، وقد أغنى هؤلاء العلماء تلاميذ إفريقية على الرحلة إلى المشرق وكفوْهم عناء الأسفار والمشاق، و لم تعد الهجرة إلى أبعد من القيروان تستهوي غير البعض من التائقين إلى أداء المناسك والراغبين في التوسّع والسياحة والالتقاء بعلماء الأقطار[26]، ويذكر الشيخ بن عاشور بهذا الصدد: «بأن المغاربة قصّروا الرحلة نحو المشرق منذ قدوم سحنون سنة (191هـ- 806م) واشتغل علماؤها بالأخذ عنه لما رأوا من سعة علمه ونقده وقصّروا عن الرحلة التي كانت تفتح الأبصار على تقدم المشرق، فلذا فاتهم نقل العلوم العقلية»[27].

ومن مميزات المراحل السابقة للهجرات الطلابية أي خلال الفترة (القرن 03هـ/ 09م- إلى غاية القرن 13ه- 19م) أن أعداد الطلاب المهاجرين فيها قليلة لكن من بينهم من طالت به الإقامة في تونس إلى حد أنه انصهر في بوتقة مجتمعها وصفوفها العلمية وتأقلم مع بيئتها الثقافية والسياسية،الأمر الذي جعله شيئاً فشيئاً ينتحل صفة الوسط العلمي والثقافي الذي كان يعيش فيه، كما فعل أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني(المسيلي أصلاً)، المتوفى حوالي (454هـ/ 1063م)، وإسحاق بن أبي عبد الله عبد الملك الملشوني (البسكري أصلاً) المتوفى حوالي (226هـ/ 841م)، بحيث جالس الإمام سحنون، وأخذ كل منهما عن الآخر كما قرّبه

الأمير محمد بن الأغلب (206-242)هـ-(821-856)م إليه وخصّه بمكانة مرموقة في بلاطه لعلمه الوافر واطلاعه الواسع.

ومن الذين قادوا حركة الهجرات العلمية إلى تونس في هذه الفترة المتقدمة بن الزبيب الحسن بن محمد التميمي التاهرتي (340-420)هـ-(951-1029)م[28]، والغبريني أحمد بن أحمد (644-704)هـ- (1246-1304)م[29]، وقد اشتهر من غير هؤلاء كثيرون ممن وفدوا على القيروان من الجزائر أيام كانت عاصمة علمية فكرية على الخصوص في العهد الأغلبي، غير أنه«باشتهار مدينة تونس، وانتقال مركز الثقل العلمي إليها منذ العصر الحفصي، وما عُرف عن الحفصيين من احتفائهم بالعلماء وبإنشائهم للجوامع والمدارس كاهتمامهم بجامع الزيتونة، حتى نبغ في رحابه خلال هذا العصر مئات العلماء الجزائريين، [الذين] أسهموا في حركته العلمية إسهامًا مرموقًا، فكانوا من تلاميذه النبغاء ثم أصبحوا من علمائه ومدرسيه ...ومنهم إبراهيم بن يخلف التنيسي (ت670هـ-1272م)[30]، والشيخ عبد المنعم الغسَّاني الفقيه الأديب العالم بالفرائض، والمحكم بصناعة التوثيق[31]، والفقيه عبد الوهاب بن عبد القادر البجائي(ت689هـ -1291م)، وكذلك عبد الرحمان الأصولي (ت693هـ- 1294م) شاعر بجاية وأديبها الذي آثر الإقامة بتونس بعد تتلمذه على علماء جامع الزيتونة، ومن البجائيين أيضاً محمد بن عبد الرحمان الشاطبي(ت691هـ-1292م) الذي انصرف عن سكنى بجاية ووُلي قضاء تونس فاشتهرت آثاره القضائية، كما نبغ من تلاميذ الزيتونة محمد بن غريون(ت730هـ- 1330م) وهو من كبار علماء مدينة بجاية وخطيبها[32]، وأبو العباس الغبريني(ت714هـ-1315م) الذي درس في جامعة الزيتونة على بن زيتون وعبد الله القلعي

وعدد من العلماء المعروفين في عصره، ثم تلاه ابنه قاضي الجماعة الشيخ الإمام خطيب جامع الزيتونة أبو القاسم الغبريني (ت776هـ- 1375م) فقيه تونس وعالمها وإمامها.

ويمكن إعتبار القرنين(14م-15م)-(8هـ-9هـ) - في حركة الهجرات العلمية الجزائرية نحو تونس- من أزهى الفترات وأغناها تواصلاً بين القطرين الشقيقين بدعوة بروز صفوة مثقفة من طلبة العلم الجزائريين خلال هذه الفترة، بحيث نلاحظ ما يربو عن عشرين عالماً جزائريًا خلال قرن واحد(14م) قد ربطتهم صلة ما بالقطر التونسي ولعل من أشهرهم أبو زيد بن الإمام عبد الرحمان (ت741هـ-1340م) وعلى دربه سار ابناه عبد الرحمان وعيسى[33]، كما اشتهر أيضاً خلال هذه الفترة الشريف التلمساني(710هـ - 1310م) إمام المالكية بالمغرب العربي كله، وبن مرزوق الحفيد(766-842)هـ- (1364- 1438)م، حجة الفقه المالكي في زمانه، والمقَّري محمد بن أحمد بن أحمد التلمساني[34] والمليكشي بن عمر البجائي(ت740هـ- 1339م) الذي ذكره الحضرمي فقال: «كان صدرًا في الطلبة والكتّاب فقيهًا كاتبًا أديبًا حاجًا راويةً...صاحب خطة الإنشاء بتونس...»[35]، وعبد الرحمان الثعالبي (786- 874)هـ- (1384-1473)م، كبير المفسرين، والرصّاع محمد ابن قاسم بن عبد الله الأنصاري التلمساني(ت894هـ- 1488م)، الذي وُلي قضاء الجماعة بتونس وإمامة جامع الزيتونة والخطابة فيه، وفي نفس الزمان نجد الطولقي إبراهيم ابن محمد الأخضري البسكري (ت899هـ-1493م)، الذي تصدى للتدريس والإفتاء بتونس وتوفي بها، والقسنطيني أبا القاسم بن محمد الوشتاني(ت847هـ-1443م) قاضي الجماعة في تونس، والعلمي يحي (ت888هـ- 1483م)، والمشالي محمد بن محمد(822-865)هـ-(1419-

1460)م والمغراوي أحمد (ت820هـ- 1417م)، والبجائي منصور (865-930)هـ-(1460-1523)م، والنقاوسي أبو الطيب(848-898)هـ- (1444- 1492)م.

وممن نوّهت به كتب التراجم من أعلام الجزائر الدارسين بجامع الزيتونة خليل الصنهاجي[36] (ت826هـ- 1423م) تلميذ بن عرفة، والشيخ عاشور القسنطيني الذي يصفه صاحب(ذيل البشائر) بأنه عالم جليل فاضل، وأحمد بن عمار الذي تولى الإفتاء بتونس، ومن تلاميذه الذين درسوا عليه بتونس إبراهيم سيالة، وأحمد الغزال الجزائري ومن آثاره كتاب في التاريخ عن حكم علي باي تونس يومئذ[37].

وقد يُلاحظ الباحث أن فترة الحكم العثماني للمنطقة (القرون16م-18م) قد شهدت حالة من الكساد الثقافي والعلمي في كل من الجزائر وتونس حيث انعكس هذا الفتور على حركة طلاب العلم من الجزائر باتجاه تونس، غير أن هذه الظروف الصعبة وفترة الانحطاط الثقافي التي دخل فيها المغرب الكبير، لم تمنع من بروز بعض الأسماء ولعلّ من أشهرهم: الثعالبي عيسى بن محمد بن عامر الجعفري(1020-1080)هـ- (1611- 1669)م، وأحمد التجاني (1150-1230)هـ- (1737- 1814)م، والفكون قاسم بن يحي(ت965هـ- 1557م) الذي ولي الإمامة بتونس، وعزوز بن مصطفى (1181هـ- 1768م) مؤسس الزاوية الرحمانية بنفطة، والأفضلي يحي بن صالح (1119-1222)هـ- (1708-1808)م من علماء بني يزقن الذي تعلم في جربة[38] والرحموني أحمد الصالح (1151-1241)هـ-(1739-1826)م.

ومن بين من ارتحل إلى تونس خلال القرنين 18م و19م، نجد القاضي والشيخ أحمد العوادي-الذي ينحدر من قبيلة عوادي بجهة قسنطينة- وقد تولى التدريس بالجامع الأعظم

وخطة القضاء بماطر(ت1243هـ-1828م)، ومن بينهم كذلك الشيخ الولي محمد البشير وأصله من جبال زواوة، وكان قد تولى التدريس بتونس وقرأ عليه المؤرخ أحمد بن أبي ضياف...[39]، وبنهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن العشرين الميلاديين تدخل حركة طلاب العلم الجزائريين نحو تونس مرحلة أخرى ذات أهمية كبيرة وهي المرحلة التي تعنينا في هذه الدراسة، وقد أحصينا خلال هذه الفترة ما يناهز (**2907**) طالباً عاشوا ما بين القرنين (19-20)م[40].

فبعد وقوع الجزائر تحت السيطرة الاستعمارية تواصلت هجرات العلماء الجزائريين إلى تونس وارتفع معها نسق تردّد الطلبة الجزائريين على جامع الزيتونة وباقي المؤسسات التعليمية بتونس، غير أن مرحلة القرن العشرين تُعدُ بداية مرحلة هامة في عملية التواصل العلمي بين الجزائر وتونس وهي لكليهما مرحلة لنهضة شاملة لا مثيل لها في القرون الثلاثة الأخيرة (عصور الانحطاط) من حيث المجالات الثقافية والسياسية والاجتماعية والدينية، وإذا كان القرن (19م) قرن الحوادث الجسام التي شهدتها منطقة المغرب الكبير ومنها على الخصوص انتهاء العهد العثماني في الجزائر(1830م) ووقوع تونس تحت الهيمنة الفرنسية(1881م)، وفشل المقاومة المسلحة في كلا القطرين؛ فإن الربع الأخير منه وبالأخص العشرية الأخيرة وبالنظر إلى أوضاع المنطقة السياسية والثقافية والاجتماعية قد جعل الجزائريين يلجئون إلى طرق وأساليب أخرى لتصفية حساباتهم مع الاستعمار الفرنسي في البلاد وذلك باستعمال الوسائل التي جلبها الاستعمار معه، المادية منها والمعنوية كالطباعة والصحافة وتأسيس النوادي والمدارس والجمعيات[41].

وخلال القرن (19م) لم نعثر إلا على عدد قليل من المثقفين الجزائريين الذين شدّوا رحالهم نحو تونس، أما عن الذين كانوا استقرارهم دائمًا بحيث عملوا بتونس وسكنوا بها ثم توفوا بها منهم: محمد بن عيسى الجزائري(1828 -1892) م، الذي انتقل إلى تونس سنة 1857م وتولى بها رئاسة الكتابة العامة ثم خطة الإنشاء سنة 1882م ثم انقطع إلى العلم حتى وفاته؛ ومن المعاصرين له الخيراني قاسم بن محمد بن علي الجزائري، والحسين بن علي بن عمر الطولقي (1830–1891)م، والعربي بن عطية البوعبدلي الشلفي ...[42]، ومصطفى بن الشاوش القسنطيني (ت1836م)، وأحمد بن سعيد العباسي المعروف بأبي العباس (ت1936م) والراشدي الحبيب بن محمد(ت1868)، والإغريسي أحمد بن محمد بن عبد القادر(ت1889)، ...][43].

وإذا نظرنا إلى أخريات القرن التاسع عشر نجد أن هذه الفترة جسّدت همزة وصل زمنية بين عصور الانحطاط وعصر النهضة الثقافية والعلمية في الجزائر ، فخلالها تهيَّأت ثلّة هامة من الصفوة الجزائرية وأخذت على عاتقها مهمة النهوض بالبلاد ثقافيًا وعلمياً والتي لم تجد بُدًا لتأدية مهامها على أكمل وجه ممكن أن تقصد تونس وبالذات جامع الزيتونة لتغْرف هناك من مناهل العلم ما تيسّر لها ثم تعود إلى موطنها الأصلي دون أن تقطع الصلة بينها وبين تونس بل كانت إقامة هؤلاء هنالك عاملاً هامًا في ربط الصلات بين الجزائر وتونس، ومد جسر ثقافي علمي ثم سياسي بين القطرين وذلك بتوجه تلاميذهم وطلابهم نحو المراكز الثقافية في تونس وبالأخص منها جامع الزيتونة حيث يتكوّن هؤلاء ثم يعودون إلى بلدهم، وأحسن مثال على ذلك ما قام به الشيخ عبد الحميد بن باديس في عشرينيات القرن الفارط وما قام به خلفاؤه من بعده في خمسينياته.

وما يلاحظ على هذه الفترة التي هي من أهم فترات تاريخ الجزائر المعاصر أنها أنجبت كل العلماء والشخصيات السياسية التي تعلَّمت وتثقَّفت ثقافة عربية إسلامية والتي قُدر لها أن تمسك بزمام الأمور لتلعب الدور الريادي المنوط بها أو على الأقل أن تحتل مكانة مرموقة في الحركة النهضوية الوطنية، وإلى نفس الرعيل ينتمي عبد الحليم بن سماية(1282-1351)هـ-(1866-1933)م وهو من أوائل المصلحين الجزائريين الذين اعتنقوا مذهب محمد عبده (1265-1322)هـ-(1849-1905)م[44]، ولكن أشهر هؤلاء إطلاقًا هو الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس (1306-1358)هـ -(1889-1940)م واضع أسس النهضة التعليمية المعاصرة بالجزائر، بحيث كانت هجرته سنة (1325هـ-1908م) نحو جامع الزيتونة طلبًا للعلم فاتحةَ عهد جديد بين القطرين الشقيقين[45].

وهناك مسار ثالث بين المسارين السابقين(الشمال الشرقي والجنوب الصحراوي) كان يقتصر على ارتياد الزوايا والكتاتيب والمدارس الواقعة على مقربة من الحدود الجزائرية-التونسية وهو مسار الوسط الذي تمثله مدينة تبسة ومجموع مدن الجنوب (بسكرة ووادي سوف، ووادي ميزاب)، كان هذا المسار يتخذ من مدينة تبسة منفذًا للعبور إلى المدن التونسية القريبة، ويُغرى أبناء هذه المنطقة على الهجرة العلمية بصورة مستمرة[46].

وينبغي أن نوضح قبلاً أن الإحصاءات الرسمية لم تخصص في تقويمها أي مكان للطلبة الجزائريين باعتبارهم منضوين داخل الطاقم الطلابي الزيتوني أو الخلدوني..... من دون تحديد الجنسية والهوية وينسحب ذلك على ما جردناه بشكل متواضع من الصناديق المحفوظة في الأرشيف الوطني التونسي أو البكارات المتوفرة على مستوى المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية بتونس، وبالتالي من الصعب حصر عدد الطلبة الجزائريين بتونس بصفة دقيقة وبنفس

الدقة لكل الأجيال وذلك لغياب الوثائق الرسمية في بعض الفترات الزمنية، لذلك استندنا في ضبط قائمة الطلبة على امتداد كامل فترة البحث إلى **الأرشيف الوطني التونسي**: والذي يتضمن معطيات هامة ودقيقة ورغم طابعه الرسمي حول مراحل التعليم بالجامع الأعظم وباقي المؤسسات التعليمية بتونس، فهو المصدر الرئيس والمادة الخام الأولى التي مثّلت ركيزة بحثنا ومكنتنا من الوقوف على عديد الجوانب المتصلة بالبحث وفهم البعض الآخر وخاصة منها: العلبة التي تتضمن (دفاتر تأسيس تلامذة جامع الزيتونة وفروعه) خصوصاً الملفات: (من 5916 إلى 5631)، و العلبة التي تتضمن (دفاتر إحصائية لتلامذة جامع الزيتونة وفروعه) خصوصاً الملفات: (من 5634 إلى غاية ملف 5664)، والعلبتين (9-4)و(8-2)، اللتان تتضمنان إحصائيات وأرقام بحسب السنوات الدراسية لمجموع تلامذة الجامع بما فيهم التلامذة الجزائريين.

هذا بالإضافة إلى **النشرات الطالبية**، **والدوريات المصدرية**: كمجلات جمعية العلماء المسلمين، والصحف التونسية، والدوريات الخاصة بالجامع الأعظم: (كالزيتونية، وصوت الطالب الزيتوني...). **وشهادة الطلاب القدامى**، بالإضافة إلى تقارير الشرطة الفرنسية، والمراسلات الإدارية والأمنية بين الهيئات الأمنية أو بين نظارة ومشيخة الجامع الأعظم والوزارة الكبرى. ولا يمكن إغفال المراسلات الشخصية والعائلية بين الطلبة الزيتونيين وذويهم.

لقد أفضت كل هذه الجهود إلى جرد أكثر من **2907** طالبًا وطالبة موزعين على كامل فترة الاستعمار غير أن هذا الرقم يتضمن الطلبة الذين واصلوا دراستهم بالمؤسسات التعليمية بتونس، وكذا الطلبة الذين شكّلت لهم هذه المؤسسات مرحلة عابرة ينتقلون منها إلى جامعات الشرق، كما يضم أيضاً نوعًا ثالثًا من الطلبة وهم أولئك الذين سجلوا إدارياً من أجل تسوية

وضعيتهم القانونية بتونس أو بقصد الفرار من أداء الخدمة العسكرية، زيادة على ذلك هناك عدد معتبر من الطلبة الجزائريين الذين سجلوا بالمؤسسات التعليمية التونسية بهويات مزورة أو انخرطوا بدون دفتر بهدف التخفي والتمويه عن السلطات الأمنية..وإذا أضفنا على هذه القائمة الطلبة ذوي الأصل الجزائري والمقيمين إقامة دائمة بتونس (نتيجة هجرات سابقة) وهو ما تعذّر علينا إنجازه كون هذا النوع من الطلبة غير محدد الهوية والوثائق الرسمية الأرشيفية أو التقارير الصحفية التي تحدد هويته عن طريق مكان الإقامة ولا يهمها البحث في الأصول الأولى وهي معاناة أخرى قد لا تقل حدّةً عن إشكالية عددية أخرى مطروحة تتمثل في عدد ليس بالقليل من الطلبة الجزائريين الذين انخرطوا في فروع الجامع الأعظم بالداخل التونسي فكيف يمكن إحصائهم في حالة ما إذا توفرت الإحصاءات الموثقة؟

وقد قدّر أحد المهتمين بالتعليم بتلك الفروع عدد الطلبة الجزائريين سنة 1948م بحوالي (120) طالبًا بالنسبة لستة فروع[47]، وربما بلغ عدد طلبة الفروع في نهاية الأربعينيات إلى 200 طالباً[48] مما يجعل العدد الإجمالي للطلبة الجزائريين المرسمين يتجاوز 1500 طالب حينها.

ومن جهة أخرى فإن عدد الطلبة في بداية السنة الدراسية يكون مرتفعًا ثم ينخفض شيئاً فشيئاً، ومثال ذلك أنه في بداية الموسم الدراسي (1357-1358)هـ- (1939-1949)م كان عدد الطلبة الجزائريين يفوق 350 طالب يزاولون تعليمهم الزيتوني، لكن في نهاية تلك السنة وصل العدد الجملي للطلبة إلى 218 طالب[49]، لينخفض أكثر مع تردي الوضع الأمني بسبب الحرب العالمية الثانية.

ثم أن الزيتونة ليست المؤسسة التعليمية الوحيدة في تونس التي كان الطلبة الجزائريون يلتحقون بها بل هناك من المعاهد العليا والمدارس العربية التي كان لها سمعة طيبة ثقافيًا وعلميًا بين المثقفين الجزائريين، ولا شك في أن معظم الجزائريين كانوا يلتحقون بهذه المدارس في تونس قبل أن يدخلوا الجامع الأعظم ومن ثمة يبقى تحديد عدد الطلبة الجزائريين في تونس بصفة مدققة في فترة ما، - في حدود الإمكانيات المتاحة الآن- على الأقل لسبب بسيط هو أن هذه المؤسسات لا تحصي عدد طلابها وليس لديها البتَّة ما يُعرف في وقتنا الحالي بالأرشيف.

ونظرًا لطول الفترة المعنية بالدرس واختلاف تكوين الطلبة التعليمي والثقافي والإيديولوجي والظرفية التي عاشوا فيها ليس بالإمكان دراسة هذا الحشد العددي الهام من الطلبة على امتداد (أزيد من نصف قرن) ككتلة متجانسة بل من الضروري تقسيمها إلى أجيال[50] أو فترات تتباين فيما بينها في الإطار الزمني والمعنوي والمادي، و لم تكن أجيال الطلبة الدارسين بالجامعة في معزل عن هذا الصراع فيما بينها، ولسوف يتجسد هذا الصراع على الساحة الطلابية من خلال الانشقاق الحاصل داخل جمعية الطلبة الجزائريين الزيتونيين، أو من خلال مواقف الطلبة من عديد المسائل السياسية والاجتماعية والثقافية في الجزائر.

ففي جوان 1952م نشرت الصحافة التونسية الصادرة حينها إحصاءً يفيد بأن عدد الممتحنين الوافدين على الزيتونة من الجزائر في نهاية السنة الدراسية (1370-1371)هـ(1951-1952)م بلغ (90) طالباً، بالإضافة إلى ذلك فإن عدد التلاميذ الجزائريين الذين كانوا يتابعون دروسهم بالمعاهد الزيتونية بتونس العاصمة أو بعض الفروع الأخرى بالجهات المختلفة بلغ في تلك السنة نحو (1200) طالب بينما لم يكن هذا العدد قد تجاوز المئتين (200) طالب خلال فترة الحرب العالمية الثانية، وقد ظل هذا العدد في تزايد

مطرد إلى سنة (1961)م وبعد أن استقلت الجزائر أمكن للجميع العودة إلى الوطن والمساهمة في النهضة التعليمية ، وجاء في العدد (53) من جريدة المجاهد[51]أن عدد الطلبة الجزائريين بتونس (560) طالباً خلال الموسم الدراسي (1957-1958)م، كما ذكر جدول أعداد الطلبة في المشرق العربي والمغرب العربي بين سنتي (1955-1960)م[52]،أن عدد الطلبة الجزائريين بتونس خلال الموسم الدراسي (1960-1961)م بلغ (536) طالباً.

جدول 01: تطور الوجود الطلابي بالمؤسسات التعليمية بتونس[53]

المنطقة	الفترات الزمنية						مجموع طلاب كل منطقة
	ما قبل القرن العشرين	1900-1918	1919-1939	1939-1946	1947-1953	1954-1962	
الشرق الجزائري	54	135	637	211	981	248	2266
الوسط الجزائري	16	33	75	44	224	70	462
الغرب الجزائري	23	04	31	03	63	19	143
ذوي الأصل الجزائري	17	06	06	00	03	04	36
المجموع بحسب الفترة	110	178	749	258	1271	341	2907
المجموع الكلي	2907 طالب						

ويمكن أن نستنتج من هذه الأرقام أن تطور عدد الطلبة الجزائريين بتونس قد تم على مراحل وبنسق جد متفاوت بحسب الظروف السياسية والأمنية والمادية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية لكلا القطرين.

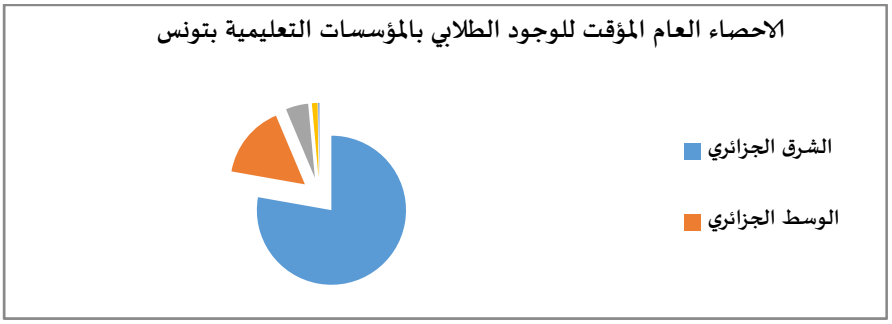

وخلاصة القول فإن تطور عدد الطلبة الجزائريين بتونس لم يرتبط بسياسة تعليمية حكومية فرنسية سابقة، أو تخطيط منهجي مدروس سلفاً من أي إدارة سابقة، بقدر ما كان للعوامل النفسية والاجتماعية للفرد الجزائري دور في ذلك، وما نلاحظه أيضاً هو هيمنة الذكور على قوائم الطلبة المتمدرسين في الجامع الأعظم في مختلف الفترات فلم نسجل طوال الفترة المعنية بالجرد سوى ستة (06)طالبات من مناطق مختلفة في القطر الجزائري وخلال الفترة (1947-1962) فقط. ممن التحقن بجامع الزيتونة[54].

3. أثر الهجرة الطلابية إلى تونس على الحياة التعليمية بالجزائر:

عرفت الهجرة العلمية للطلبة الجزائريين إلى تونس تحولات عميقة في الانتماء الاجتماعي والجغرافي لروادها، فبعد هيمنة متواصلة لأبناء المدن عليها إلى غاية نهاية الحرب العالمية الأولى؛ استقطبت المؤسسات والمعاهد التعليمية بتونس بدءاً من ثلاثينيات القرن العشرين طلبة من طبقة الفئات الشعبية المتواضعة، هذا وقد أبرزت لنا الأرقام الموجودة التنافس الشديد بين مختلف

الشرائح الاجتماعية في الحفاظ على مكانتها ضمن وسطها الاجتماعي، وهو ما يفسر حضور بعض المهن والوظائف داخل كل فئة مقابل تراجع البعض الآخر؛ فإن الجالية الطلابية الموجودة بالمؤسسات التعليمية التونسية ليست سوى مثالاً مصغراً للمجتمع الجزائري بمختلف شرائحه وأوساطه والتحوّلات التي مرَّ بها، ولسوف ينعكس هذا الانتماء الاجتماعي بالضرورة على ظروف عيش هؤلاء الطلبة وعلى اختياراتهم العلمية ونشاطاتهم بتونس، وعلى توجهاتهم واختياراتهم الإيديولوجية بعد العودة إلى الجزائر(وهذا أهمها بالنسبة لموضوعنا).

كما يعتبر الانتماء الجغرافي مؤشراً هاماً ذا دلالات متعددة الإفادة، لدراسة عديد الظواهر، سياسية كانت أم اقتصادية أو اجتماعية أو ثقافية، ولبلوغ هذا الهدف من الضروري أن تتوفر لدينا كل المعلومات المتعلقة بمكان الولادة أو الموطن الأصلي لكل دارس درس بتونس، وتبرز قراءة النتائج المحصل عليها من جملة الوثائق الأرشيفية والنشرات والمراسلات ....التي تم الإطلاع عليها؛ خلال الفترة (1919-1961)م هيمنة القطاع القسنطيني حيث استأثرت منطقة قسنطينة وضواحيها بالمرتبة الأولى أي بما نسبته 72,96% بالنسبة لكامل الفترة الزمنية المدروسة، وهو ما يُفسر كثافة النشاط التعليمي والدعوي بإقليم الشرق، كما يمكن تفسير ذلك حسب اعتقادنا بتركّز العمل الإصلاحي الذي قاده الشيخ بن باديس الداعي إلى إرسال البعثات المنتظمة باتجاه تونس على القطاع القسنطيني. كما أن للقرب الجغرافي والتقارب الاجتماعي بين القطاع وتونس من حيث (اللهجة، والعادات والتقاليد...) دور مؤثر في هذه المعطيات؛ ذلك أن القطاع القسنطيني أغلبه يقع بمحاذاة الحدود التونسية مما يُسهّل على طلابه مصاعب السفر، والشأن نفسه نجده بالنسبة للقطاع الوهراني مع جامع القرويين بفاس.

إن النخب العلمية التي نالت حظها التعليمي والسياسي والفكري والأدبي من الحاضرة التونسية بعد ارتحال طال أم قصر عادت إلى الجزائر وهي متحفزة ومندفعة لتجسيد أمانيها في النهضة العلمية واليقظة السياسية، فمنهم من امتهن مهنة التدريس ضمن التعليم الحر في المدارس التابعة لجمعية العلماء المسلمين أو لحزب الشعب، أو ضمن الكتاتيب والزوايا والمعاهد العصرية المتناثرة في الجزائر على غرار ما هو قائم في الجنوب ومنطقة وادي ميزاب، ومنهم من التحق بالعمل السياسي الوطني ضمن أنشطة النجم أو حزب الشعب فيما بعد، ومن ثم شارك في العمل الثوري بجيش التحرير الوطني، ومنهم من غادر الوطن لاجئاً في مهمة وطنية للجبهة أو للجمعية قبل حلّها، ومنهم من غادر الوطن وشارك في الثورة تربوياً وتعليمياً في خلايا جبهة التحرير الوطني كمجنّد في ميادين التوعية السياسية والإعلام الثوري، كما أن منهم من تولى القضاء الثوري في الجهات التي حددتها له قيادة الثورة سواء بالداخل أو بالخارج على الحدود الشرقية أو الغربية وهم في ذلك كلّه معرّضون للتضحيات الجسام (سجن، اعتقال نفي، استشهاد، إقامة جبرية...» ومنهم من حفظه الله وسلِم من كل ذلك.

وهنا أمكننا أن نعالج قضية الخلاف الذي وقع لهذه النخبة المتعلمة بعد العودة إلى الجزائر وانطلاقها في المهمة التي أنيطت بها، ذلك أنهم وبعد تحصيلهم لشتى العلوم والفنون آثروا العودة إلى الجزائر والأمل يحدوهم في تحقيق نهضة تعليمية وتربوية شاملة لكن بأهداف متباينة، وبإنتماءات سياسية وإيديولوجية متشاكسة، جسّدت في تلك الفترة عمق الصدام الذي وقع بين مختلف أطياف النخب المثقفة ثقافة عربية –إسلامية حول النهج الفكري والحضاري الذي وجب على الحركة الوطنية الجزائرية الفتية اتباعه آنذاك، فانقسمت إلى ثلاث تيارات، منها من سار في ركاب التوجه المتصالح مع الوجود الإستعماري في الجزائر بنوعيه: النخب المكتسبة

للثقافة الفرنسية (الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري)، أو المرتمية في الثقافة الغنوسية السلبية(الطرق الصوفية الضالة)، ومنها من سار في ركاب نهج الإصلاح الديني (جمعية العلماء المسلمين المتصالحة مع الاتحاد الديمقراطي والمعادية للطرق الصوفية الضالة)، ومنها أيضاً من تبنى النهج السياسي بنوعيه (النضالي-الثوري).فالخلاف لم يكن أصلاً في الغاية التي هي:

- تحرير الأرض والإنسان والهوية الوطنية من التماهي الإستعماري الطارئ.
- تكوين وتحصين الجيل القادم من ترسبات أكثر من نصف قرن أو يزيد مسَّت مكامن الهوية والإنتماء.

إنما الخلاف كان في الخطوة الأولى من المشروع الوطني، فانقسمت هذه النخب إلى ثلاث تيارات لتجسيد خطوتها الأولى:

◄ **تيار المداراة:** الذي اتبع خطة نشر الوعي السياسي والثقافي في تقية تامة مع محيطها الخاضع للهيمنة الاستعمارية.

◄ **تيار المجاراة:** الذي اتبع في خطوته الأولى أسلوب الإنخراط في المحيط السياسي (تشكيل الأحزاب، والنضال الانتخابي)، والسياق الثقافي الفرنسي ومجاراته في دعوى التشريع الإصلاحي والتثقيفي وفق سياسة خذ ثم طالب.

◄ **تيار المعاداة:** الذي نهج في أسلوب خطواته الأولى سلوك الرفض المطلق للكينونة الاستعمارية الفرنسية للجزائر والدعوة صراحة إلى الحرية والقطيعة.

عموماً، فقد كان برنامج هذه النخبة برنامجاً تعليمياً وتربوياً في آن واحد، فمن الوجهة التربوية والدينية أرادوا الرجوع بالإسلام إلى صفائه الأول والعودة إلى تبني المراجع التقليدية للمذهب المالكي، مما اضطرهم إلى مقاومة المعتقدات الباطلة ومظاهر السحر والشعوذة، ومن

الوجهة التعليمية والثقافية فإنهم قد سعوا إلى لمّ شَتات المجموعة الإسلامية بالتقريب بين مختلف المذاهب الدينية، والتيارات الفكريةوالفقهية بدون ميّز في الجنس أو الأصل قصد خلق كتلة واحدة من المسلمين الجزائريين(55).

وفي سبيل ذلك اهتموا أولاً بتصحيح التنشئة التربوية فبثّوا تعليماً مُهيئاً على الطريقة الشرقية(وأقصد هنا النظم الإدارية والتعليمية، وطريقة التدريس والتقييم ومنح الشهادة)؛ أي تقليدياً ومستوحى من مبادئ البيئة العربية في آن واحد، فأنشأوا حتى بالمداشر والدواوير مدارس حرّة لنشر مبادئ اللغة العربية والتربية الإسلامية، وكان هدفهم الأسمى هو إنشاء جامعة كبرى على غرار الجامعة الزيتونية كي تكون مركز إشعاع للثقافة العربية في الجزائر، ثم امتدت حركتهم التربوية والتعليمية إلى الأوساط العمالية والمهنية والترفيهية بفرنسا والجزائر حيث أسّسوا بها نوادي تربوية وأخرى تعليمية(56).

إذن لم يكن دور هؤلاء الطلبة ليقف عند حدود تحريض أترابهم على الالتحاق بالمعاهد العلمية بالخارج، ومساعدة من هم بحاجة إلى مساعدة من الطلبة المستجدين، وإنما كانوا يستغلون عُطلهم الصيفية لإلقاء الدروس العامة في المساجد والكتاتيب والبيوت الخاصة وكثيراً ما كانوا يختارون عن طواعية الانتشار في الآفاق البعيدة خصوصاً بعد تخرّجهم لأداء رسالة الإصلاح والتربية على الوجه الأكمل.. حيث اندفع بعضهم أحياناً إلى تأسيس المدارس العربية والقرآنية الحرة متحشّمين أعباء التأسيس، ومكرّسين جهودهم لنشر العربية التي كان حظّها منقوصاً في المدارس الرسمية مفضّلين المغامرة وبذْل الجهود في المدارس الوطنية القرآنية بما توفّر لهم من الفرص والجهد.

وقد تمكّنت هذه الثلة من العلماء بتياراتهم الثلاث من إنشاء مدارس ومعاهد حرة للتعليم المكتبي للصغار، وتنظيم دروس في الوعظ والإرشاد الديني في المساجد، ومحاضرات في شؤون الحياة العامة في النوادي، وكان التعليم المكتبي يهتم بتدريب الطلاب على الخطابة والتبسّط في الحديث وتربية مَلكَة الذوق والاستنتاج، وفي العودة إلى العربية الفصحى ونفض التهيّب والترجّل في مخاطبة الجماهيروكان من نتائج ذلك استقامة الألسُن المتباينة، كما دخل في التعليم المكتبي أيضاً القرآن الكريم وعلومه وطبْع أمهات كتب الحديث الصحيحة والتفسير حتى يُرشّدوا الجماهير إلى جادّة الصواب، والقضاء على أمية الكبار والتشجيع على القراءة النافعة والبحث العلمي السديد حتى يُحافظ الجيل القادم على عربيته التي تشكّل وآدابها لسان الأمة الجزائرية كلها لأن نشر العربية عندهم معناه تسهيل الطريق لفهم القرآن الكريم.

وقد لاحظ الصحفي التونسي ابن محمود نور الدين الذي زار منطقة وادي سوف عام 1952م بأن أدواراً مميّزة للنخبة الزيتونية من خلال نشاطها الدؤوب في نشر الدين الصحيح واللغة العربية في أوساط ساكني وادي سوف قائلاً: «قام أحد متساكني «وادي سوف» من خريجي الزيتونة بتأسيس مدرسة لتعليم العربية وتحمّل تبعات ما يُكلّفه هذا المشروع من العمل المضني على إعطاء دروس بالعربية في المدارس النظامية، و لم يكن خريج الزيتونة هذا إلا الشيخ الطاهر التليلي المحرز على العالمية من جامع الزيتونة.. ففي أكثر الأحيان كان الناس يُقبلون من تلقاء أنفسهم على العائدين من الدراسة في المؤسسات التونسية أثناء العطلة يرغَبون إعطائهم دروساً في اللغة العربية وشؤون الدين الإسلامي... ويقطعون لذلك المسافات الشاسعة بين القرى والمدن بدافع الرغبة الجامحة في التعلّم»[57].

ورغم الممارسات القمعية الفرنسية إلا أن خريجي المؤسسات التعليمية التونسية كانوا بعودتهم قد أوصلوا الحلقة المفقودة التي صنعها الاستعمار بين الجزائر والعالم العربي وذلك عن طريق التعليم في المساجد والمدارس الأهلية الحكومية، فكانوا من الروّاد الأوائل الذين وجّهوا كل طاقاتهم وجهودهم في بعث الثقافة العربية الإسلامية، التي كادت أن تندثر حين استولى الاستعمار الفرنسي على الأوقاف الإسلامية التي كانت تموّل معظم المراكز العربية الإسلامية، وبعثها على نطاق واسع بواسطة المراكز الثقافية والنوادي الحرّة التابعة لجمعية العلماء أو الأحزاب والجمعيات الأخرى، ولولا جهود هؤلاء الطلبة ويأتي على رأسهم الشيخ عبد الحميد بن باديس لَكُتب للفكر الإنساني الجزائري أن يكون له مصير آخر غير الذي تقرر، وبذلك نجح التعليم العربي الحرّ في المحافظة على الثقافة القومية للجزائر باعتبارها من مقومات الشخصية الجزائرية.

إذن فالإطار الحضاري الذي تحرك داخله الطلبة الجزائريون واستمدوا منه مادّتهم الخام، هو إطار الحضارة العربية الإسلامية بمفهومها العام، ومن شرايين هذه الحضارة إستقوا شخصيتهم الأدبية والفكرية، وشعورهم القومي وروحهم الإسلامية اللذيْن يكوّنان عندهم الوتَر الحسّاس والعِرق النابضْ كما كان يُكونان عند المثقف الجزائري حينها إرثاً استطاع ليل الاستعمار الطويل أن يخفيه ويخنقه ويشلّه زمناً طويلاً ولكنه لم يستطع أن يقضي عليه أو يُتلفه[58].

وهذه السمات كانت ظاهرة في أنشطتهم وإسهاماتهم الأدبية والفكرية والسياسية، ولاسيما ما ظهر منها قبل الثورة لأن ظاهرة التمسّك بالدين وبالهوية الوطنية، أخذت في هذه المرحلة ارتباطها الوثيق بفكرة الجهاد والاستشهاد في سبيل الجزائر، وإذا حاول الدارس أن يتتبع

أدوارهم الفكرية والسياسية بُغية استخلاص هذه النزعة عندهم فإنه لا يستطيع حصرها في موضوع معين من إنتاجهم، وبديهي أن هذه النزعة وليدة اتجاههم في الحركة الإصلاحية كما سبقت الإشارة إليه، ولعلّ النماذج التي اعتمدناها تكفي دلالة في البرهنة على تَجْلِية هذه الحقيقة الفكرية.

«لقد ظل اتجاههم الديني والوطني يطبع أعمالهم الفكرية والأدبية بطابع خاص، ويكون في كتاباتهم سلاحاً عنيداً في الدفاع عن مقاومتهم لحركات التبشير والتنصير التي أعطاها الاستعمار بوجوده دفْعاً قوياً من أجل تشويه الإسلام وتحريفه أمام الأجيال الجزائرية حتى لا تفقَد ثباتَها وتضطرب مسيرتها فتتشبث بثوب المستعمر»(59).

وفي مرحلة الثورة التحريرية شعر هؤلاء الطلبة بالمسؤولية الوطنية التي تتطلب منهم التضحية بعد الأخرى والنضال المستديم وقوة الإرادة والنشاط لمواجهة سياسة الاحتلال الفرنسي في وطنه، كما شعر أنه "مجند" موضوع في الاحتياط ينتظر من يوم إلى آخر التخلي عن الكتاب والكراس والقلم ليحمل البندقية ويلتحق بإخوانه في الجبال«وما يدل على استعداد الطلبة الجزائريين في كل وقت للتطوع في صفوف جبهة التحرير أنهم تطوعوا بأعداد وافرة وسجلوا أسماؤهم في قوائم طويلة عندما أشعرتهم الجبهة أنها تحتاج إلى بعضهم للعمل في الإدارة أو القضاء أو في السلك الطبي أو غيرها من الميادين الأخرى التي انبثقت عن التنظيم الثوري لمؤتمر الصومام التاريخي»(60).

يقول الشيخ أحمد حماني: «.. كان من خريجي جامع الزيتونة منذ عودتهم إلى الجزائر في طليعة المجاهدين، وكان لهم ميدانهم في التربية والتكوين وفي المحافظة على القومية والأخلاق والدين ووحدة الصفوف متراصّة ومحاربة كل وسائل التخريب والفساد واليأس والقنوط وكلّ

عوامل الهزيمة وخراب النفوس، كل ذلك من أعظم وسائل إعداد الشعب للجهاد والوصول إلى شاطئ السلامة»[61].

لقد اضطلع هؤلاء الطلبة بدور تاريخي، حيث كانت لهم مواقف علمية وفكرية مميزةخلال في فترة الاستعمار المظلمة، وقد دلّ ذلك على وعيهم وتفطنهم لوجودهم الرسالي وهو حرصهم وتأكيدهم الدائم للحفاظ على مقومات هويتهم الحضارية. وقد عبروا عن ذلكعند إهداء مجلتهم الثمرة الأولى إلى الجزائر... التي لم ترى من الأبناء الذين يحسبون لحرمة الأمومة حسابها ويفقهون للكرامة معناها– إلا النادر القليل، «إلى الأم الحنون والوطن المفدى بالنفس والنفيس: الجزائر العزيزة الناهضة نهدى كعنوان على الطاعة والولاء والتضحية والجهاد في سبيل مرضاتها وهنائها؛ هاته القطرات المنعشة علها تُثلج صدرها المحترق، وتخفّف نوعاً ما من كمد كبدها الجريء الملتهب، فتبتسم للمستقبل الزاهر، وتنشرح نفسها للأمل السعيد..»[62].

يعتقد الأستاذ "عدي الهواري" في كتابه "مأزق الشعبوية" بأن «العلماء احتلوا بنضالهم مكانة خاصة ضمن الوطنية الجزائرية، فقد ساهموا في تكوينهم بشكل حاسم، بالرغم من غموض مواقفهم فيما يتعلق بمسألة الاستقلال»، ويضيف عدى الهواري: «أن المجهودات التي بذلها العلماء لبعث المجتمع الجزائري بدأت بالوقوف ضد الطرقية وفرض اللغة العربية وإبراز الماضي التاريخي للجزائر، وذلك ما يجعلهم بمثابة المؤسسين الأوائل للوطنية الجزائرية، فإذا كان مصالي الحاج يريد بعث الدولة الجزائرية، فإن ابن باديس كان يفكر في بعث الأمة الجزائرية، وكلاهما يكمل الآخر»[63].

ومن الإنصاف فإنه لا يجوز اعتبار تاريخ رجالات هذه الفئة النيرة مجرد تاريخ لأنصار الحركة الإسلامية المتزمتة أو لأتباع التيار القومي العربي؛ إنما هو تاريخ وطني إصلاحي كان طول فترة الكفاح الوطني بمثابة الحصن الحصين بالنسبة إلى المقاومة الوطنية السياسية والثقافية على وجه الخصوص تجاه حركة تسرب القيم الاستعمارية وتأثيراتها في البلاد والعباد، ومن ناحية أخرى فقد كانت تلك المدارس والمعاهد التي أسسوها بمثابة قلعة وطنية جسدت المنبر الدائم الذي تتنافس في ظله الأفكار المتناقضة ولكنها كانت أيضاً مثرية وبنَّاءة إلى أبعد حد.هذا وإن دراسة تاريخ النضال الطلابي الجزائري في تونس بمعزل عن أي اعتبار متميز وبمنأى عن أي خطاب تبريري من شأنها أن تساعدنا بدون شك على حسن إدراك الحركية الاجتماعية والتحولات الذهنية التي صنعت حركة التحرير الوطني، وهذا من شأنه أيضاً أن يسمح لنا بالعثور على عناصر الإجابة اللازمة لإدراك بعض التساؤلات المتعلقة بحاضرنا.

الخاتمة

إجمالاً فإن هذه السطور المختصرة على طور الهجرة العلمية في اتجاه تونس وأثرها على الحياة الجزائرية ترسم لنا الصورة الأولى من صور تطلع الجزائريين منذ بداية تأسيس أولى المراكز العلمية بتونس إلى التفقه في الدين والاستزادة من علوم العربية لتعميق صلاتهم بالحضارة والدين، كما أن طور الهجرات العلمية التي قادها بن باديس منذ سنة 1908م لم تكن استمرارًا أو تمثيلاً لمرحلة سابقة فقط بل كانت أيضاً طورًا من البعث والإحياء وإعادة الجسور المقطوعة، وفيما يتعلق بموضوع الدوافع الغالبة على حركية الإرتحال الطلابي الجزائري،فإن تطور عدد الطلبة الجزائريين بتونس لم يرتبط بسياسة تعليمية حكومية فرنسية سابقة، أو تخطيط منهجي مدروس سلفاً من أي إدارة سابقة، بقدر ما كان للعوامل النفسية والاجتماعية للفرد

الجزائري دور في ذلك، وما نلاحظه أيضاً هو هيمنة الذكور على قوائم الطلبة المتمدرسين في الجامع الأعظم في مختلف الفترات، كما أن وفرة مراكز العلم بتونس مع وجود جامع الزيتونة إضافة إلى دعاية العائدين منه بشهاداتهم أو في عطلهم من طلاب العلم، كل ذلك كان يزيد في حمى الهجرة العلمية باتجاه تونس.

كما أن أمر الهجرات الطلابية هذه لم يكن بأي حال من الأحوال حكرًا على جمعية العلماء المسلمين ومدارسها الحرّة فقط وإنما شاركها فيه عديد التيارات والمنظمات السياسية والثقافية والاجتماعية على امتداد انتماءاتها التي تتراوح بين الاتجاه الاستقلالي الراديكالي والاتجاه الإصلاحي المعتدل، يضاف إلى ذلك إسهامات الأشخاص والمجموعات التي هي الأخرى قامت بمبادرات مميّزة في هذا الباب حيث تكفلت بعديد الطلاب الراغبين في الدراسة بتونس، ولعل أهم مظهر من مظاهر المشاركة المادية والمعنوية للأشخاص في دعم هذا الاتجاه هو الدور الريادي الذي قام به العقيد عميروش إبان الثورة الجزائرية.

يضاف إلى ذلك أن هذه الهجرات والزيارات المتبادلة بين الجانبين (الجزائري-التونسي) أخذت مكانًا بارزًا في توطيد أواصر الأخوّة بين الأشقاء في بلاد المغرب وتنشيط عملية التأثر والتأثير بين وجوه حركة النهضة في هذه البلاد[64]، وعن ذلك تحدّث المدني قائلاً: «ويمكن أن نسمي الفترة المعاصرة التي تعيشها الجزائر بعصر النهضة العربية بالجزائر حيث نبغ فيها العدد الكبير من الأدباء والكتاب والعلماء؛ منهم من تخرّج من كلية الزيتونة بتونس ومنهم من تخرّج من المدارس الحكومية الثلاث،... ولم تبق الجزائر الإسلامية في هذا العصر منعزلة عن العالم العربي فأصبحت متأثّرة بكل الحركات العلمية والأدبية العربية التي يحملها إليها الطلاب من ....تونس والتي تحملها إليها الكتب والصحف والمجلات الشرقية»[65].

كما أن من نتائج هذه البعثات المتتالية هو إفرازها المستمر لعدد من الكتاب والشعراء والمفكرين والصحفيين والأدباء والزعماء السياسيين الذين آثْروا تاريخ الجزائر السياسي والأدبي، وأصبحوا من أعلامه البارزين ومثَّلوا في شعرهم ونثرهم روح الجزائر المناضلة وثورتها الفريدة، ومن الاستنتاجات التي يمكن أن نخرج بها أيضاً، هو أن النخب الجزائرية التي قادت مسيرة الحركة الوطنية طيلة المرحلة الاستعمارية نجحت في أن تُثري قضية الوحدة المغاربية بأدبيات سياسية وفكرية متنوعة، كما أنها تمكنت أيضاً من توظيف هياكل التنسيق والنضال المشترك التي تعلموها في تونس أو في المهجر عموماً لخدمة المسألة الوطنية الجزائرية لكن الذي تعثرت في إنجازه هو إسهامها في خلق وعي قومي وحدوي حقيقي قوامه الوحدة السياسية بعد الاستقلال.

هوامش البحث:

(1)-Machuel, Machuel (L), **l'Enseignement public en Tunisie (1883- 1906),** Tunis: Imprimerie Rapid, 1906, P21

(2)- العياشي (مختار)، **الزيتونة والزيتونيون في تاريخ تونس المعاصر**، تونس: مركز النشر الجامعي، 2003م، ص32.

(3)- نفسه.

(4)- نفسه.

(5)- عباس (فرحات)، **ليل الاستعمار (حرب الجزائر وثورتها)**، تر أبو بكر رحال، الجزائر: منشورات أناب 2005م، ص39.

(6)-أجيرون (شارل روبير)، **تاريخ الجزائر المعاصرة**، تر: عيسى عصفور، بيروت: منشورات عويدات، 1982م، ص 156.

(7)- عيساوي (أحمد)، **الحياة العلمية والدعوية للشيخ سيدي محمد الطيب بن مبروك**، الجزائر: مطبعة الفنون الخطية 2005م، ص21، يراجع أيضًا:- سعد الله (أبو القاسم)، **الحركة الوطنية الجزائرية**، ج2، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط4، 1992م.ص409.

(8)-Favrod (charles), **la Révolution Algérienne**, Paris: plon, 1959.,P126.

(9)-بوحوش (عمار)، "أسباب الهجرة إلى فرنسا"، **الثقافة**، ع14، الجزائر: أفريل/ ماي 1973م، ص161.

(10)- سعيدوني(نصر الدين)، **دراسات وشهادات مهداة إلى الأستاذ أبو القاسم سعد الله**، بيروت:دار الغرب الإسلامي 2000م، ص 480.

(11)-مالك (بن نبي)، **مذكرات شاهد القرن**، ج1، تر: مروان القنواتي، بيروت: دار الفكر، 1969م، ص 134.

(12)-خير الدين (محمد)، **مذكرات**، ج1، الجزائر: مؤسسة الضحى، 2000م، ص 64.

(13)- للتوسع في دور ج.ع.م.ج، يراجع: الإبراهيمي، "إحياء التعليم المسجدي"، **البصائر الثانية**، ع7، الجزائر، (1947/09/09)م، ص01.للتوسع يراجع: - **الشهاب**، ج11، مج 10، الجزائر: أكتوبر 1934م- ودور حزب الشعب الجزائري يراجع: - تركي (رابح)، **التعليم القومي والشخصية الجزائرية**، ط2، الجزائر: ش.و.ن.ت، 1981م.، ص-ص (244 -245).

(14)- سعد الله (أبو القاسم)، **منطلقات فكرية**، بيروت: الدار العربية للكتاب، 1977م، ص44..- وأيضاً: مرحوم (علي)، " لمحات من حياة بن باديس "، **الأصالة**، ع24، الجزائر، 1976، ص.ص(106-107).

(15)-Gran, (A.H),The Tunisian Ulama(1873-1915), **social structure and Response To Ideological**,(P.HD), Dissert, U.C.L.A., 1971, P53.

(16)-الزبدي (علي)، **تاريخ النظام التربوي للشعبة العصرية الزيتونية**، تونس: بلا نشر، 1986م، ص09.

(17)-المعموري(الطاهر)، **جامع الزيتونة ومدارس العلم في العهدين الحفصي والتركي**، تونس: الدار العربية للكتاب، 1980م، ص03.

(18)- السراج(محمد)، **الحلل السندسية في الأخبار التونسية**، مخطوط 01، تونس: المكتبة الوطنية، ب.ت، ص567.

(19)- وعن فضل جامع الزيتونة على الجزائر يرجى مراجعة: بن باديس(عبد الحميد)، "في تونس العزيزة"، **الشهاب**، ج5، مج 13، تونس 1937/07م. وعن ولع الجزائريين بالزيتونة والوفاء لتونس وفضلها راجع أيضاً: - **البصائر الأولى**، ع20، الجزائر 1936/05/22- بن باديس، "حيا الله تونس"، **البصائر الثانية**، ع60، الجزائر: 1948/12/20م- مبارك الميلي، "المجلة الزيتونية"، **الزيتونية**، مج2،

ج6، تونس: مارس 1938م، ص47- **الزيتونية**، تونس: 1954/10/27م- أحمد الشريف السنوسي " الطلبة الجزائريون والزيتونة "، **البصائر** الثانية:ع 47، الجزائر:1948/08/30م، ص2.- **البصائر الثانية**، ع11، الجزائر: 1947/10/20م- **البصائر**، ع20، الجزائر: 1948/01/19م- **النهضة**، تونس: 1924/01/18م- النهضة، تونس، 1924/02/18م- الصريح، تونس، 1950/04/14م. - أبي اليقظان (إبراهيم)، ديوان أبي اليقظان، الجزائر: المطبعة العربية، 1350هـ، ص 35.- الخرفي (صالح)، "الزيتونة في قلوب أبناء الجزائر" **الحياة الثقافية**، ع82، تونس: 1937م، ص.ص(11– 18).- الجابري(محمد الصالح)، "المؤرخ الجزائري مبارك الميلي"، **الثقافة**، ع102، الجزائر، أفريل 1994م، ص.ص(23-25).- - فضلاء (محمد الطاهر)، **الشيخ محمد خير الدين، آثار ومآثر**، الجزائر: مؤسسة الضحى، 2005م، ص 80.

(20)- فضلاء(محمد الطاهر)، **التحريف والتزييف في كتاب حياة كفاح**، الجزائر: دار البعث 1982م، ص 329.

(21)-**الزيتونية**، مج 6، ج3+2، تونس: 1945/8/7، ص 435.

(22)-ولد خليفة (محمد العربي)، **الثورة الجزائرية (معطيات وتحديات)**، الجزائر: م.و.ك، 1991م، ص76.

(23)- الخطيب (أحمد)، **ج.ع.م.ج وأثرها الإصلاحي في الجزائر**، الجزائر: م.و.ك، 1985م،، ص 217. ينظر أيضاً: - الأرقش(دالندة)، الأرقش(عبد الحميد)، بن طاهر(جمال)، **المغرب العربي الحديث من خلال المصادر**، تونس: مركز النشر الجامعي، 2003م، ص290.

(24)-الجابري (محمد الصالح)، **النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس**، تونس: الدار العربية للكتاب 1983م، ص17.

(25)- بن عاشور (الطاهر)، **أليس الصبح بقريب**، تونس: الشركة القومية للنشر، 1967م، ص67.

26)- محمد الصالح الجابري، **النشاط العلمي**، المرجع السابق، ص 18.

(27)- ابن عاشور، المصدر السابق، ص 67.

(28)- نويهض (عادل)، **معجم أعلام الجزائر**، بيروت: مؤسسة نويهض الثقافية، 1983م، ص185.

(29)- نفسه، ص 260.

(30)- نفسه، ص 12.

(31)-نفسه، ص259.

(32)-الغبريني(أبو العباس)، **عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية**، تح. رابح بونار، الجزائر: ش.و.ن.ت. 1971م، ص.ص(126-129).

(33)- نويهض، المرجع السابق، ص88 .

(34)- نفسه، ص318.

(35)- الحفناوي (أبو القاسم)، **تعريف الخلف برجال السلف**، ج1، تح. خير الدين شترة، الجزائر، دار كردادة للنشر والتوزيع، ط3، 2015م، ص67.

(36)- نويهض، المرجع السابق، ص72.

(37)- سعد الله (أبو القاسم)، **منطلقات فكرية**، ط2، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 2007م ، ص. ص (69-70) .

(38)- دبوز (محمد علي)، **أعلام الإصلاح في الجزائر**، ج1، الجزائر: مطبعة دار البعث: 1976م ، ص 65.

(39)- الأرقش وآخرون، المرجع السابق، ص 304.

(40)-عن هذه الأرقام- يراجع : خير الدين شترة، **معجم أعلام الجزائر خريجي الجامع الأعظم**، دار كردادة، الجزائر، 2016م.

(41)-Archives Nationales Tunisiens (A.N.T), série D, C182,**Dossier 03,N.P141,D. Ex(1983-1942)-**

- مطالب سفر من بعض الشخصيات الدينية من الجزائر إلى تونس.

(42) -Archives Nationales Tunisiens (A.N.T), Série D, C182, **Dossier 03, doc n°(1-2 -3-10)**

(43) - نفسه.

(44)- للتوسع يراجع: نويهض، المرجع السابق، ص.ص(178-179)، -دبوز (محمد علي)، **نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة**، ج2، الجزائر: المطبعة العربية، 1971م، ص.ص(106-125).

(45)- فضيل(عبد القادر)، رمضان محمد(الصالح)، **إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس**، الجزائر: دار الأمة، 1998م، ص27.

(46)- طالع في هذا الباب ما دوَّنه مالك بن نبي في مذكراته: - **مذكرات**، المصدر السابق، ج1، ص134.

(47)- التهامي (عمار محمد)، " الفروع التابعة للجامع الأعظم". **النهضة**، تونس: 1934/10/27م.

(48)-Abdelmoula l'université Zeytounienne,p 132.

(49)-Archives Nationales Tunisiens (A.N.T), Série E, C35,**Dossier28, doc n°(25 -30).**

- جريدة بأسماء التلامذة الذين يرغبون في إحالتهم على الخيرية لتباشر تمويلهم .

(50)- في تعريف محددات الجيل اعتمدنا على الإطار الذي حدده لها الكاتب جان لوشار.في مقاله الشباب والقصور الديمقراطي: «مزيج من الناس تأثروا بحدث هام أو سلسلة من الأحداث الهامة...»،

غير أنه يستدرك ليدقق هذا التعريف قائلاً: «لكنه توجد بعض الاستثناءات، إن نفسًا ما لا يمكن لها أن تتأثر بعمق بحث معين إلا إذا أفلتت من تأثير أحداث أخرى لهذا الغرض فإن بعض الأجيال التي تولد في ظروف هادئة قد تضم عددًا هامًا من الناس من مختلف الأعمار، كما أن الأجيال التي تولد في ظروف مهتزة قد تضم جيلين أو ثلاثة أجيال في الوقت الذي تضم فيه قرونًا أخرى بأكملها ستة أو سبعة أجيال...»

Jean (Luchaire),"La jeunesse et l'insuffisante Démocrate", **Notre temps. septième année**,n°(200-201).

(51)-المجاهد، ع 53، الجزائر: 1958/12/08م.

(52)- هلال (عمار)، " دور الطلاب الجزائريين في ثورة نوفمبر"، **الشعب**، الجزائر: 1985/11/16م.

(53)-من مصادر هذا الجدول الأرشيف الوطني التونسي خصوصاً (A.N.T):

- Archives Nationales Tunisiens (A.N.T),Série D,C 35,**Dossier 28.-**

- تقرير يضم قائمة الطلبة الألف الذين لم يتمكنوا من مغادرة العامة على إثر الحرب (نوفمبر 1942)م.

- Archives Nationales Tunisiens (A.N.T),Série D,C35, **Dossier28,doc. n°(19-25-26-27-28-29-30-35).et,-doc n°(52-53-54-55) et -doc .n°(74-75-82-104)**

كما اعتمدنا على وثائق**مركز التوثيق القومي** Centre Documentation Nationale«**C.D.N**»، **والمعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية Istitut Supérieur d'Histoire du Mouvement National (I.S.H.M.N)** منها:

- I.S.H.M.N,A.N.O.M,Bob,A45,C25H32,**Dossier11,D.Ex(1936-1944),N.F103.-** ***et*** **,Dossier13,D.Ex(1936-1944),N.F203**.

بالإضافة إلى بعض الدراسات والنشرات منها: جمعية الطلبة الجزائريين بتونس(بيان إجمالي–المجلس الإداري–رجاء)، **البصائر الأولى**، ع44، الجزائر:1936/11/20م ص 05. -**البصائر الأولى**، ع 20، الجزائر: 1936/05/22م – الطيب بن عيسى، "جامع الزيتونة الأعظم"، **الوزير**، تونس: 1929/01/24م– فضلاء، **أعلام الإصلاح**، المرجع السابق، ج 2، ص66– "عن تأسيس جمعية الطلبة الجزائريين الزيتونيين"، **البصائر الأولى**، ع137، الجزائر: 1938/10/28م– مشاهد، "جمعية الطلبة الجزائريين"، **البصائر الثانية**، ع 16، الجزائر: 1947/11/22–.**البصائر الثانية**، ع 20، الجزائر: 1948/01/19م.-**البصائر الثانية**، ع07، الجزائر،

(1947/09/09)م. – هلال(عمار)، "الطلبة الجزائريون في الأزهر عام 1916م"، **الثقافة**، ع79، الجزائر:جانفي/فيفري 1984م...

(54)-Archives Nationales Tunisiens (A.N.T), Série A, C (2-et-290),**Dossier (1-237).**

(55)– جوليان (ش،أ)، **أفريقيا الشمالية تسير**، تونس: الدار التونسية للنشر، 1976م، ص135.

(56)– نفسه، ص136.

(57)– الجابري (محمد الصالح)، **النشاط العلمي**، المرجع السابق، ص43.

(58)– شريط (عبد الله)، الأدب العربي الحديث"، **الأصالة**، ع13، الجزائر: 1973م، ص54.

(59)– عباس (محمد)، **البشير الإبراهيمي (أديباً)**، الجزائر: د.م. ج، بلا، ت، ص16.

(60)–هلال (عمار)، **نشاط الطلبة الجزائريين إبان ثورة نوفمبر 1954م**، الجزائر: دار هومة، 2004م، ص82.للتوسع أكثر في قوائم شهداء الثورة من الزيتونيين راجع: – فضلاء محمد الحسن، **المسيرة الرائدة للتعليم العربي**، ج1، ج2 ج3، ج4.– جوهر (حسن محمد)، مرسي (محمد أبو الليل)، **الجزائر**: مصر، دار المعارف، 1965م، ص55 وما بعدها– تركي (رابح)، "الصراع بين جمعية العلماء وإدارة الاحتلال"، **الثقافة**، ع85، ص. ص(183– 202)– الخطيب (أحمد)، **الثورة الجزائرية (دراسة وتاريخ)**، بيروت دار العلم للملايين،1958م، ص122– جلالي (يحي)، **السياسة الفرنسية في الجزائر**،، مصر: دار المعرفة، 1959م ، ص279

(61)– حمامي (أحمد)، **شهداء علماء معهد بن باديس**، الجزائر: قصر الكتاب، 2004م، ص5.

(62)–**الثمرة الأولى** (إصدار ج.ط.ز.ج)، تونس: مطبعة الشباب، 1937م، ص25.

(63)-Lahouariaddi , **l'impasse de populisme** , édition E.n.a.l, Algérie, 1990 , p711

للتوسع يراجع: – علي الكنز، **حول الأزمة، دراسات حول الجزائر والعالم العربي**، الجزائر، دار لوشان للنشر، 1990، ص09.

(64)–مفدي (زكرياء)، المرجع السابق، ص59.

(65)–المدني (أحمد توفيق)، **كتاب الجزائر**، (ط1، 1931)، الجزائر: دار الكتاب، 1963م، ص92.

قائمة المصادر والمراجع المعتمدة:

1. المصادر:

أ. الوثائق الأرشيفية:

1. **Archives Nationales Tunisiens** (A.N.T), Série A, C (2-et-290),Dossier (1-237).
2. Archives Nationales Tunisiens (A.N.T), Série D, C35, Dossier28, doc. n °(19-25-26-27-28-29-30-35).et, -doc n°(52-53-54-55) et -doc .n°(74-75-82-104)
3. **Archives Nationales Tunisiens (A.N.T),** Série D, C 35, Dossier 28.
4. Archives Nationales Tunisiens (A.N.T), Série E, C35, Dossier28, doc n°(25 -30).
5. Archives Nationales Tunisiens (A.N.T), série D, C182, Dossier 03, N.P141, D. Ex(1983-1942).
6. Archives Nationales Tunisiens (A.N.T), Série D, C182, Dossier 03, doc n°(1-2- 3-10).
7. I.S.H.M.N,A.N.O.M, Bob,A45, C25H32, Dossier11, D.Ex(1936-1944), N.F103.- et ,Dossier13, D.Ex(1936-1944), N.F203.

ب. الكتب المصدرية:

1. أبي اليقظان (إبراهيم)، **ديوان أبي اليقظان**، الجزائر: المطبعة العربية، 1350هـ
2. بن عاشور (الطاهر)، **أليس الصبح بقريب**، تونس: الشركة القومية للنشر، 1967م.
3. الحفناوي (أبو القاسم)، **تعريف الخلف برجال السلف**، ج1، تح. خير الدين شترة، الجزائر، دار كردادة للنشر والتوزيع، ط3، 2015م.
4. حماني (أحمد)، **شهداء علماء معهد بن باديس**، الجزائر: قصر الكتاب، 2004م
5. خير الدين (محمد)، **مذكرات**، ج1، الجزائر: مؤسسة الضحى، 2000م.
6. دبوز (محمد علي)، **نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة**، ج2، الجزائر: المطبعة العربية، 1971م.
7. السراج(محمد)، **الحلل السندسية في الأخبار التونسية**، مخطوط 01، تونس: المكتبة الوطنية، ب.ت.
8. عباس (فرحات)، **ليل الاستعمار (حرب الجزائر وثورتها)**، تر أبو بكر رحال، الجزائر: منشورات أناب 2005م.
9. فضيل(عبد القادر)، رمضان محمد(الصالح)، **إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس**، الجزائر: دار الأمة، 1998م
10. مالك (بن نبي)، **مذكرات شاهد القرن**، ج1، تر: مروان القنواتي، بيروت: دار الفكر، 1969م.
11. المدني (أحمد توفيق)، **كتاب الجزائر**، (ط1، 1931)، الجزائر: دار الكتاب، 1963م

ت. الدوريات المصدرية:

1. **البصائر الأولى**، ع20، الجزائر 1936/05/22.
2. **البصائر الأولى**، ع44، الجزائر:1936/11/20م.
3. **البصائر الأولى**، ع137، الجزائر: 1938/10/28م
4. **البصائر الثانية**، ع 16، الجزائر: 1947/11/22.
5. **البصائر الثانية**، ع7، الجزائر، (1947/09/09)م.
6. **البصائر الثانية**، ع11، الجزائر: 1947/10/20م
7. **البصائر الثانية**، ع20، الجزائر: 1948/01/19م.
8. **البصائر الثانية**، ع60، الجزائر: 1948/12/20م
9. **البصائرالثانية**: ع 47، الجزائر:1948/08/30م
10. **الزيتونية**، مج2، ج6، تونس: مارس 1938م
11. **الزيتونية**، مج 6، ج2+3، تونس: 1945/8/7
12. **الزيتونية**، تونس: 1954/10/27م
13. **الشهاب**، ج11، مج 10، الجزائر: أكتوبر 1934م
14. **الشهاب**، ج5، مج 13، تونس 1937/07م
15. **الصريح**، تونس، 1950/04/14م.
16. **المجاهد**، ع 53، الجزائر: 1958/12/08م.
17. **النهضة**، تونس: 1924/01/18م
18. **النهضة**، تونس، 1924/02/18م.
19. **النهضة**، تونس: 1934/10/27م.
20. **الوزير**، تونس: 1929/01/24م

2. المراجع:

أ. **الكتب:**

1. أجيرون (شارل روبير)، **تاريخ الجزائر المعاصرة**، تر: عيسى عصفور، بيروت: منشورات عويدات، 1982م.

2. الأرقش(دالندة)، الأرقش(عبد الحميد)، بن طاهر(جمال)، **المغرب العربي الحديث من خلال المصادر**، تونس: مركز النشر الجامعي، 2003م.
3. تركي (رابح)، **التعليم القومي والشخصية الجزائرية**، ط2، الجزائر: ش.و.ن.ت، 1981م.
4. الجابري (محمد الصالح)، **النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس**، تونس: الدار العربية للكتاب 1983م.
5. جلالي (يحي)، **السياسة الفرنسية في الجزائر**،، مصر: دار المعرفة، 1959م
6. جوهر (حسن محمد)، مرسي (محمد أبو الليل)، **الجزائر**: مصر، دار المعارف، 1965م.
7. الخطيب (أحمد)، **الثورة الجزائرية (دراسة وتاريخ)**، بيروت دار العلم للملايين،1958م.
8. الخطيب (أحمد)، **ج.ع.م.ج وأثرها الإصلاحي في الجزائر**، الجزائر: م.و.ك، 1985م.
9. خير الدين شترة، **معجم أعلام الجزائر خريجي الجامع الأعظم**، دار كردادة، الجزائر، 2016م.
10. دبوز (محمد علي)، **أعلام الإصلاح في الجزائر**، ج1، الجزائر: مطبعة دار البعث: 1976م.
11. الزيدي (علي)، **تاريخ النظام التربوي للشعبة العصرية الزيتونية**، تونس: بلا نشر، 1986م.
12. سعد الله (أبو القاسم)، **منطلقات فكرية**، بيروت: الدار العربية للكتاب، 1977م
13. سعد الله (أبو القاسم)، **الحركة الوطنية الجزائرية**، ج2، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط4، 1992م
14. سعد الله (أبو القاسم)، **منطلقات فكرية**، ط2، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 2007م .
15. سعيدوني(نصر الدين)، **دراسات وشهادات مهداة إلى الأستاذ أبو القاسم سعد الله**، بيروت:دار الغرب الإسلامي 2000م
16. عباس (محمد)، **البشير الإبراهيمي (أديباً)**، الجزائر: د.م. ج، بلا، ت.
17. علي الكتز، **حول الأزمة، دراسات حول الجزائر والعالم العربي**، الجزائر، دار لوشان للنشر، 1990.
18. العياشي (مختار)، **الزيتونة والزيتونيون في تاريخ تونس المعاصر**، تونس: مركز النشر الجامعي، 2003م.
19. عيساوي (أحمد)، **الحياة العلمية والدعوية للشيخ سيدي محمد الطيب بن مبروك**، الجزائر: مطبعة الفنون الخطية 2005م.
20. فضلاء محمد الحسن، **المسيرة الرائدة للتعليم العربي**، ج1، ج2 ج3، ج4. الجزائر: دار البعث 1982م

21. فضلاء(محمد الطاهر)، **التحريف والتزييف في كتاب حياة كفاح**، الجزائر: دار البعث 1982م.
22. فضلاء (محمد الطاهر)، **الشيخ محمد خير الدين، آثار ومآثر**، الجزائر: مؤسسة الضحى، 2005م.
23. المعموري(الطاهر)، **جامع الزيتونة ومدارس العلم في العهدين الحفصي والتركي**، تونس: الدار العربية للكتاب، 1980م.
24. نويهض (عادل)، **معجم أعلام الجزائر**، بيروت: مؤسسة نويهض الثقافية، 1983م.
25. هلال (عمار)، **نشاط الطلبة الجزائريين إبان ثورة نوفمبر 1954م**، الجزائر: دار هومة، 2004م،
26. ولد خليفة (محمد العربي)، **الثورة الجزائرية (معطيات وتحديات)**، الجزائر: م.و.ك، 1991م.
27. .Lahouariaddi , **l'impasse de populisme** , édition E.n.a.l, Algérie, 1990 .
28. Machuel, Machuel (L), l'Enseignement public en Tunisie (1883- 1906), Tunis: Imprimerie Rapid, 1906,
29. Favrod (charles), la Révolution Algérienne, Paris: plon, 1959.
30. Gran, (A.H), The Tunisian Ulama(1873-1915), social structure and Response To Ideological, (P.HD), Dissert, U.C.L.A.,1971.

ب. المقالات:

1. بوحوش (عمار)، "أسباب الهجرة إلى فرنسا"، **الثقافة**، ع14، الجزائر: أفريل/ ماي 1973م.
2. تركي (رابح)، "الصراع بين جمعية العلماء وإدارة الاحتلال"، **الثقافة**، ع85، ص. ص(183- 202)
3. الجابري(محمد الصالح)، "المؤرخ الجزائري مبارك الميلي"، **الثقافة**، ع102، الجزائر، أفريل 1994م.
4. الخرفي (صالح)، "الزيتونة في قلوب أبناء الجزائر" **الحياة الثقافية**، ع82، تونس: 1937م
5. شريط (عبد الله)، الأدب العربي الحديث"، **الأصالة**، ع13، الجزائر: 1973م.
6. مرحوم (علي)، " لمحات من حياة بن باديس "، **الأصالة**، ع24، الجزائر، 1976.
7. هلال(عمار)، "الطلبة الجزائريون في الأزهر عام 1916م"، **الثقافة**، ع79، الجزائر:جانفي/فيفري 1984م
8. هلال (عمار)، " دور الطلاب الجزائريين في ثورة نوفمبر"، **الشعب**، الجزائر: 1985/11/16م.
9. Jean (Luchaire), "La jeunesse et l'insuffisante Démocrate", **Notre temps** .septième année, n°(200-201).